علم لغة النص

السبك والحبك والإحالة

Text Linguistic

Cohesion, Coherence, and Reference

محمد عبد المطلب*

mmotaleb2009@yahoo.com

ملخص:

تهدف هذه المقالة إلى التعريف بعلم لغة النص، وأبرز مصطلحاته (السبك والحبك والإحالة)، ومراجعة مقولاته الوافدة في التعامل مع اللغة العربية وطبيعتها المغايرة للغات الأخرى.

ولعلم لغة النص منجزات كثيرة من حيث كان جامعا بين اللغة –كما هو الأمر في البنيوية– والنص بمفهومه الواسع الذي يربطه بأطراف الإنتاج، أي أنهم لا يحصرون جهدهم في اللغة بمفردها، أو النص بمفرده، وإنما جهدهم كان خالصا للغة عندما تحل في النص، وهو ما أتاح لهم تقديم جهد نظري تأسيسي (للغة النص).

ويرى البحث أن السلبية التي كشفت عنها الإجراءات التطبيقية لعلم لغة النص تعود – في جوهرها – إلى أن معظم تأسيسات هذا العلم مستخلصة من اللغة الإنجليزية، ولا شك أن لكل لغة خصوصيتها المفارقة في كثير أو قليل لغيرها من خصوصيات اللغات الأخرى، وهو ما أهمله على نحو ما بعض الذين ترجموا علم لغة النص إلى اللغة العربية؛ لأنهم تناسوا أن (هاليداي ورقية حسن) عندما قدما تنظيراتهما لهذا العلم كانا يدرسان اللغة الإنجليزية عام 1979. وهو

* أستاذ البلاغة والنقد الأدبي – كلية الآداب – جامعة عين شمس.

مـا سـوف نتابعـه عنـد قراءتنـا لإجـراءات (السـبك والحبـك) والإحالـة الداخليـة والخارجية تنظيراً وتطبيقاً.

الكلمات المفتاحية: علم لغة النص؛ السبك؛ الحبك؛ الإحالة.

Abstract:

The research aims to introduce the science of the language of the text, and its most prominent terms (casting, weaving, and referral), and reviewing its incoming statements in dealing with the Arabic language and its different nature from other languages.

The science of the language of the text has many achievements in terms of combining language - as is the case with structuralism - and the text in its broad sense that connects it to the production parties, meaning that they do not confine their effort to the language alone, or the text alone, but rather their effort was purely for the language when it is dissolved in the text, which is This allowed them to present a foundational theoretical effort (for the language of the text).

The research finds that the negativity revealed by the applied procedures of the science of the language of the text is due - in essence - to the fact that most of the foundations of this science are derived from the English language, and there is no doubt that each language has its own peculiarity that differs in more or less from other peculiarities of other languages, which he neglected in a way What are some of those who translated the science of the language of the text into Arabic? Because they forgot that (Halliday and Ruqia Hassan) when they presented their theories for this science, they were studying English in 1979. This is what we will follow when we read the procedures (casting and knitting)

and the internal and external referral in theory and application.

The research aims to introduce the science of Text Linguistics, and its most prominent terms (casting, weaving, and referral), and reviewing its incoming statements in dealing with the Arabic language and its unique nature. Text Linguistics has many achievements in terms of combining language - as is the case with structuralism - and the text in its broad sense that connects it to the production parties, meaning that they do not confine their effort to language, or the text alone, but rather to language dissolved in the text, the thing that allowed them to present a foundational theoretical effort (for the linguistics of the text).

The research unfolds that the negativity revealed by the applied procedures of the science of Text Linguistics is due - in essence - to the fact that most of the foundations of this science are derived from the English language. There is no doubt that each language has its own peculiarities that differ from those of other languages, which was somehow neglected by some of those who translated the science Text Linguistics as they forgot that when (Halliday and Ruqia Hassan) presented their theories for this science, they were studying English in 1979. This is what we will follow when we study the procedures of (cohesion and coherence) as well as the internal and external reference in theory and application.

Keywords: Text Linguistic, Cohesion, Coherence, Reference

(1)

لعلم لغة النص منجزات كثيرة تكاد تنطلق من مقولة (سوسير) عن (اللغة والكلام)؛ ذلك أن منجزات هذا العالم تتحرك من المصطلح الأول (اللغة) بخلفيته المثالية التي تختزنها الذاكرة الجماعية للمجتمع اللغوي إلى المصطلح الثاني (الكلام) الذي تتحول فيه اللغة من مثاليتها المحفوظة إلى إجراء تنفيذي منطوق أو مكتوب، أي هو دراسة اللغة حال الاستعمال.

في أواخر سبعينيات القرن الماضي أخذت البنيوية في الأفول، وساعد على أفولها جهود مجموعة (ما بعد البنيوية) الذين نظروا إليها بوصفها مجرد (لعب) بالتكوينات اللغوية، وبذل الجهد للبحث عن مجموعة التقابلات والتخالفات والتماثلات، والإغراق في الرسوم البيانية والإحصاءات الرقمية، أي أن همهم الأول والأخير سكنى النص والتعامل مع مكوناته، وفي مقدمتها مكوناته اللغوية.

ويبدو أن هذه الجماعة وجدت ضالتها في شيء قريب من البنيوية، هو (علم لغة النص) من حيث كان جامعا بين اللغة – كما هو الأمر في البنيوية – والنص بمفهومه الواسع الذي يربطه بأطراف الإنتاج، أي أنهم لا يحصرون جهدهم في اللغة بمفردها، أو النص بمفرده، وإنما جهدهم كان خالصا للغة عندما تحل في النص، وهو ما أتاح لهم تقديم جهد نظري تأسيسي (للغة النص).

ومن بواكير هذه التأسيسات الانشغال بمفهوم النص وعلاقته بمفهوم الخطاب، من حيث كان النص خالصا للنصية بكل مكوناتها اللغوية وغير اللغوية، بينما كان الخطاب خالصا للنصية حال التخاطب، ولعل هذا الفهم هو الذي أتاح لبعض الدارسين أن يربطوا النص باللغة المكتوبة، وأن يربطوا الخطاب باللغة المنطوقة، ومن ثم ظهر ما يشبه الإجماع في (علم لغة النص) على أن القراءة الصحيحة للنص هي التي تتابعه في كل مكوناته اللغوية حال

إنتاجها للدلالة، دون محاولة ربطها بالسياق الاستعمالي حتى لا تدخل دائرة القراءة (التداولية)، ودون محاولة ربط المنتج الدلالي بمرجعيته الثقافية حتى لا تدخل دائرة (النقد الثقافي).

إن هذا الوعي الذي سكن مجموعة (ما بعد البنيوية) يمكن أن يجلب إلى (علم لغة النص) بعض مقتنيات البنيوية والأسلوبية، ذلك أن مفردة (النص) ذاتها يمكن أن تقود هذا العلم لتجعل بينه وبين العلوم الأخرى التي تصل اللغة بالأدب على نحو من الأنحاء صلة حميمة، على أن يكون في الاعتبار الحفاظ على قدر من استقلالية النص وإعطاء الأهمية الأولى (للرسالة اللغوية).

ولا شك أن هذا الذي ذكرنا يؤكد ما داخلنا من يقين عن أن الرواد الأوائل لعلم لغة النص كان لهم رغبة مضمرة في إحياء البنيوية مرة أخرى، لكن في نسق مغاير بعض المغايرة، متفادين بعض السلبيات التي صاحبت البنيوية في مسيرتها النقدية القصيرة زمنيا، مثل الإغراق في الرسوم والبيانات والإحصاءات الشكلية.

يوثق ادعاءنا عن محاولة إحياء البنيوية، أن علم النص أخذ على عاتقه بعض المهام التي ترتبط بالتشكيل الداخلي للنص في مستوياتها البنائية المختلفة، مثل العلاقات الدلالية الظاهرة، والعلاقات المضمرة، وأشكال الترابط والتواصل الدلالي والصياغي[1]، لكن اللافت في هذا الأمر أن (علم لغة النص) ادعى لنفسه اهتمامه بدراسة العلاقات الداخلية والخارجية للنص، ومن يتابع هذا الادعاء متابعة منصفة، سوف يكتشف أن إضافة مفردة (الخارجية) إلى مهام هذا العلم كان الهدف منها إيهام براءته من البنيوية؛ إذ إن النظر في مجمل هذه العلاقات الخارجية سوف يئول بها إلى كونها علاقات داخلية أيضا في جوهرها البنائي، ولعل ما ذكره (فان دايك) يؤكد ما ندعيه؛ إذ رأى صراحة: أن علم لغة النص خالص (لعمل اللغة ذاتها داخل النص).[2]

(2)

ومن الإنصاف للثقافة العربية أن نقدم في هذا السياق الجهد البلاغي العربي الموسع الذي قدمه البلاغيون العرب في القرون الهجرية الخمسة الأولى، وهو جهد ظلمه الحداثيون عندما اتهموه بالجزئية، وأن مفهوم النص عند البلاغيين يمكن أن يتحقق في الجملة الواحدة أو ما هو في حكم الجملة الواحدة، متناسين أن معظم هذا الجهد البلاغي كان جهدا تأسيسيا نظريا، والتنظير يحتاج الشاهد الجزئي غالبا؛ لأن الشاهد الكلي رهن بالدرس التطبيقي، ومتناسين في الآن نفسه أن الجهد الحداثي في علم لغة النص رأى أن النصية يمكن أن تتحقق في الفقرة المكتوبة أو المنطوقة، سواء أكانت فقرة طويلة أم قصيرة، وهذه القصيرة قد تكون جملة واحدة، المهم في هذا وفي ذاك أن يتحقق في الفقرة الوحدة والتكامل، مع ملاحظة أن الوحدة والتكامل يحكمهما مصطلحان رئيسيان: (السبك والحبك)، بالإضافة إلى توفر القصدية والمقبولية والموقفية.

وكما ألمحنا إلى علاقة (علم لغة النص) بالبنيوية، لا بد أن نشير إلى أن هناك علاقة له أيضا (بنحو النص)، ذلك أن نحو النص يدرس البنية اللغوية معزولة عن سياقها، مع وجود تمايز لا بد من الإشارة إليه؛ إذ إن (نحو النص) يعتمد – بالدرجة الأولى – على (القاعدة والمعيار) بينما تعتمد القراءة في علم لغة النص على المصطلحين اللذين أشرنا إليهما: (السبك والحبك) دون الاحتكام المركزي إلى القاعدة والمعيار.[3]

والحق أن السلبية التي كشفت عنها الإجراءات التطبيقية لعلم لغة النص تعود – في جوهرها – إلى أن معظم تأسيسات هذا العلم مستخلصة من اللغة الإنجليزية، ولا شك أن لكل لغة خصوصيتها المفارقة في كثير أو قليل لغيرها من خصوصيات اللغات الأخرى، وهو ما أهمله على نحو ما بعض الذين ترجموا علم لغة النص إلى اللغة العربية؛ لأنهم تناسوا أن (هاليداي ورقية حسن) عندما

قدما تنظيراتهما لهذا العلم كانا يدرسان اللغة الإنجليزية عام 1979. وهو ما سوف نتابعه عند قراءتنا لإجراءات (السبك والحبك) والإحالة الداخلية والخارجية تنظيرا وتطبيقا.

(3)

وهذه المتابعة يلاحقها إجراء آخر يتجاوز السبك والحبك ليتصل بمفهوم (النص) للخروج به من إطاره المحدود في الدلالة على النصية الكاملة في القصة أو المسرحية أو القصيدة أو الخطبة أو الرسالة، إلى أن يتضمن عملية (الاتصال)، وبمفهوم الجاحظ: (الفهم والإفهام)[4]، وهي عملية تتحقق مع النص الكامل، كما تتحقق في (الجملة وشبه الجملة)، بل إن هذا المفهوم قد يتحقق في الكلمة المفردة عندما يضعها الاستعمال في سياق الإفادة، كأن نلاحظ لوحة تحمل مفردة واحدة، مثل: (مغلق) أو (مفتوح) أو (خطر) أو (ممنوع) أو (إصلاحات)، إلى آخر هذه المفردات التي تؤدي معنى الجملة الكاملة، فمفردة (مغلق) تعني: أن القارئ لا يمكن أن يدخل هذا المكان، أو أن يمر من هذا الطريق، أي أن واضع اللوحة قد حول المعنى الذي يريد التعبير عنه إلى مبنى موجز، ومهمة المتلقي أن يعيد هذا المبنى الموجز إلى معناه الكامل مرة أخرى، ثم تحويل الإيجاز إلى تفصيل، وبهذه العملية المزدوجة يتحقق الاتصال والفهم والإفهام.

ويتابع الباحثون في علم لغة النص سعيهم لتحقيق النصية المفيدة باستدعاء مصطلحين مركزيين هما: (السبك والحبك)، وغالبا ما يكون السبك تعبيرا عن التماسك الصياغي من خلال الأدوات النحوية المحفوظة في الذاكرة اللغوية، مثل: (أدوات العطف والجر والشرط)، ويكون الحبك تعبيرا عن التماسك الدلالي بحيث يكون النص أشبه بلوحة متناسقة الألوان والأحجام، يكمل بعضها بعضا، أو كما يقول عبد القاهر الجرجاني في هذا السياق: "أن تتحد أجزاء الكلام،

ويدخل بعضها في بعض، ويشتد ارتباط ثان منها بأول، وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعا واحدا، وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه ها هنا في حال ما يضع بيساره هناك، نعم، وفي حال ما يبصر مكانٌ ثالثٌ ورابعٌ يضعهما بعد الأولين[5]، ثم يرصد الأشكال الإحالية التي تشارك في هذا التماسك بقوله: "الفكر من الإنسان يكون في أن يخبر عن شيء بشيء، أو يصف شيئا بشيء، أو يضيف شيئا إلى شيء، أو يشرك شيئا في حكم شيء قد سبق منه لشيء، أو يجعل وجود شيء شرطا في وجود شيء".[6]

ولعل مثل هذا الوعي التراثي بمصطلحي (السبك والحبك) يحددهما في إيجاز دال أسامة بن منقذ في قوله: "خير الكلام المحبوك المسبوك الذي يأخذ بعضه برقاب بعض"[7].

والذي نخلص إليه من الوافد الغربي من ناحية، والوافد من التراث العربي من ناحية أخرى، يؤكد ارتباط (علم لغة النص) بالنحو والبلاغة على صعيد واحد، أي أن هذا العلم يجمع بين السلامة النحوية بكل إمكاناتها التركيبة، والجمالية الإبداعية بكل طاقتها التخيلية، وإن رأى ناقلو علم لغة النص أن هذا العلم لا صلة له بالهدف الجمالي؛ لأن مهمته تركزت في عملية الاتصال فحسب.

وهنا لا بد أن يكون لنا وقفة موضوعية مع الجهود التراثية العربية في البحث عن كيفية التماسك النصي على المستوى الصياغي والمستوى الدلالي، إذ حدد الباحثون العرب كيفية بناء الرسالة اللغوية، وأن هناك وسيلتين لهذا البناء: (النطق أو الكتابة)، لكن يبدو أن عنايتهم كانت أهم بالوسيلة الأولى، ومن ثم جاء اهتمام النحاة والبلاغيين بالمستوى الصوتي؛ لأنه وثيق الصلة (بالاستعمال) أي بالموقف الكلامي، ووثيق الصلة بردود فعل المتلقي، وهذا المستوى كان وثيق الصلة بالتماسك الصياغي في المفردة كما وكيفا، أي بكمية المنطوق وكيفيته،

ووظفوا في هذا السياق مصطلحا بالغ الدلالة هو: (التنافر) المضاد للتماسك الصياغي في المفردة الواحدة، وهو ما وصفه ابن الأثير (بالتنافر في السبك)، ثم ربطه بعملية (الاستبدال)، أي إزالة التنافر بالاستبدال الصياغي كما في قول المتنبي:

فَلا يُبرَمُ الأَمرُ الَّذي هُوَ حالِلٌ * وَلا يُحلَلُ الأَمرُ الَّذي هُوَ مُبرِمُ

فلفظة (حالل) نافرة صوتيا ولغويا في موضعها، ويمكن أن نضع كلمة (ناقض) التي تؤدي المعنى دون هذا التنافر محل كلمة (حالل).[8]

ومن حيث الكيف رأى معظم الباحثين القدامي أن سبب التنافر هو القرب الشديد أو البعد الشديد في مخارج الحروف.[9]

وهذا الحرص على التماسك الصياغي في المفردة كان انعكاسا للذائقة العربية في تركيب الحروف بعضها مع بعض، ومن ثم نفرت هذه الذائقة من الجمع بين العين والحاء، والغين والخاء، والجيم والصاد، والجيم والقاف، والذال والزاي، لما يحصل من تأليفها من تنافر يخل بتماسك الكلمة في النطق.[10]

أما الناحية الكمية، فقد تمثلت في عدد أحرف الكلمة، إذ آثر الذوق الصياغي الكلمات المحدودة الأحرف على الكلمات الكثيرة الأحرف، إلا إذا كان السياق في حاجة إلى الكثيرة الأحرف، ولذا عاب الباحثون كلمة (أذربيجان) في بيت أبي تمام:

فَلِأَذَربيجانَ اِختِيالٌ بَعدَما كانَت مُعَرَّسَ عَبرَةٍ وَنَكالِ

(4)

والحرص على التماسك في البنية المفردة كان تمهيدا لكلامهم عن التماسك في التركيب، بل إن عنايتهم بالمستوى التركيبي كانت أكبر وأهم، بدءا بالجملة، ثم الجمل المتتابعة، ثم النص الكامل مع توظيف مصطلح آخر هو (النظم) الذي يعتمد على مفهوم (التعليق) الذي يهتم بالعلاقة بين المفردات، وهو ما

يتنافي مع مفهوم (الضم) الذي تتتابع فيه الدوال دون رابط حقيقي يربط بينها: فلو عمد عامد إلى مجموعة ألفاظ وجمع بينها من غير أن يراعي فيها عملية (التأليف)، فلا قيمة لما فعل؛ لأن الألفاظ لا تراد لذاتها، وإنما تراد ليكون بينها تعلق دلالي، ويقول عبد القاهر الجرجاني: إن قيمة التركيب تظهر بالتعليق بطريقة مخصوصة، فليس المراد مجرد النطق باللفظة بعد اللفظة من غير اتصال يكون بين معنييها، ومكونات التعليق ليست سوى الوظائف النحوية للغة.(11)

وهذا التماسك الذي تابعنا مقولاته في المفردات ثم المركبات، قد امتد ليلاحق النص الكامل، من المحاولات المبكرة في هذا السياق ما قدمه ابن قتيبة في رصده لمنهج القصيدة العربية، إذ يرى: "أن مُقصّد القصيد إنما ابتدأ بذكر الديار والدمن والآثار فبكى وشكا، وخاطب الربع، واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الذين رحلوا عنها، ووصل ذلك بالنسيب، فشكا شدة الوجد، وفرط الصبابة والشوق، ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، ويستدعي به إصغاء الأسماع؛ لأن التشبيب قريب من النفوس، لائط بالقلوب... فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له عقب بإيجاب الحقوق، فرحل في شعره، وشكا النصب والسهر وسرى الليل وإنضاء الراحلة والبعير."(12)

ويتابع ابن رشيق العناية بهذا التماسك النصي في الشعر: "فمن حكم النسيب الذي يفتتح به الشاعر كلامه أن يكون ممزوجا بما بعده من مدح أو ذم، متصلا به غير منفصل عنه، فإن القصيدة مثل خلق الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه في صحة التركيب غادر الجسم عاهة تتخون محاسنه"(13)، وفي هذا السياق يمكن الإشارة إلى ما أغفله كثير من الباحثين إلى أهمية المقولة التراثية عن (وحدة الوزن والقافية) في أهمية التماسك النصي صوتيا، ولن يغيب التماسك الدلالي عن هذا التماسك الصوتي.

والاهتمام بهذا التماسك النصي وجه الباحثين في النحو والبلاغة إلى مصطلح (الأشكال) ويقصدون منه وجود عازل صياغي يمنع المتلقي من إدراك المعنى المقصود نتيجة لغيبة التماسك التركيبى، وقد عددوا أسبابا لهذا الأشكال ويهمنا منها (الإحالة) إلى مجهول، أو إلى شيء غير محدد، فتكون الإحالة كلا إحالة، ويستشهدون على ذلك ببيت امرئ القيس مخاطبا خالد بن سدوس:

دع عنك نهبا صيح في حَجَراته * ولكن حديثا ما حديث الرواحلِ

فحديث الرواحل يحيل إلى شيء مجهول للمتلقي؛ لأن الإحالة تشير إلى واقعة اغتصاب رواحل خالد التي أعارها له امرؤ القيس.

ومن ثم تتابع الباحثون في كيفية تحقق السبك والحبك في النص على وجه العموم برصد الأدوات التي تشارك في تماسك النص من خلال ظاهرة: (الإحالة) التي تعتمد على مجموعة من الأبنية اللغوية تحقق الترابط النصي عندما تحيل شيئا على شيء، وتربط بين سابق ولاحق، وفي مقدمة هذه الأبنية: (الضمير واسم الإشارة والموصول)، وتتنوع الإحالة مع هذه الأبنية إلى: إحالة داخلية – أي داخل النص – كأن يتناول النص شخصية بعينها، وبعد مسافة صياغية يستعيدها من خلال الضمير الذي يرجع إليها، وقد تكون الإحالة خارجية عندما يتناول النص شخصية من خارجه ، وهذا ما أشار إليه (دي بوجراند) في أن العلاقة قد تكون بين العبارات من جهة وبين الأشياء والمواقف في العالم الخارجي من جهة أخرى.[14]

وهنا نشير إلى أن الثقافة النحوية العربية لها مصطلحاتها الإحالية الخاصة بها، والتي تقوم على (الإفادة)، فللضمير مصطلحه في الإحالة وهو (المرجع)، والإحالة في (الإشارة) ترتبط (بالمشار إليه)، والإحالة في (الموصول) ترتبط (بجملة الصلة)، هذه هي الأبنية الثلاثة موضوع هذه الدراسة.

(5)

ونبدأ بالضمير بوصفه واحدا من أهم أدوات الربط بالإحالة، وبرغم ذلك فهو يدخل في عداد (المبهمات) لأن الذي يوضحه هو (المرجع)، والمحفوظ أن له عدة تقسيمات، وأولها أقسامه الثلاثية الرئيسية: (ضمير المتكلم، وضمير المخاطب، وضمير الغائب)، ثم هناك (الضمير المتصل والمنفصل) ثم (ضمائر الرفع والنصب والجر)، ثم (ضمير المفرد والمثنى والجمع)، ثم (ضمير المذكر والمؤنث)، وأخيرا (الضمير الظاهر والمستتر).

وهذه الضمائر تؤدي وظيفة أساسية في عملية (السبك) لأن الضمير مبهم يوضحه مرجعه، وقد أشار ابن جني إلى أهم الأسباب التي تدفع المتكلم إلى استخدام الضمير، وفي مقدمتها (إزالة اللبس) ثم (الخفة)، ذلك أننا لو قلنا: (زيد ضربت زيدا) سيكون هناك إلباس، إذ من الممكن أن يظن المتلقي أن (زيدا) الثاني غير الأول، فإن قلنا: (زيد ضربته) أزال الضمير هذا اللبس، أما (الخفة) فلقصر الضمير صياغيا، فلو قلنا: (المستشفى زرت المستشفى) كان تكرار كلمة المستشفى بحروفها الثمانية ثقيلا، فإن أردت الخفة قلت: (المستشفى زرته) فالضمير المكون من حرف واحد، أخف من تكرار الحروف الثمانية.)[15]

ويؤكد الزركشي دور الضمير في تماسك البنية الصياغية والدلالية؛ لأن وظيفته (الإحالة) أي أن يحيل إلى شيء سابق في السياق، سواء أكان هذا السابق ملفوظا أم مفهوما[16].

وما ذكره ابن جنى والزركشي وأسامة بن منقذ وغيرهم يؤكد عناية الثقافة العربية – وبخاصة النحوية – بتماسك النص على وجه العموم، وهذا ما نلاحظه في مجمل الأبواب النحوية التي راعت عملية التلاحم النصية، مثل (باب الإسناد) و (باب المبتدأ وخبره) و (باب التعدية) و (باب التوابع) و(باب

الإضافة) و (باب الشرط) و(باب الاستثناء) وحروف الجر، وحروف التسوية، وغيرها من الأبواب التي اعتمدت الترابط والتماسك النصي صياغيا ودلاليا.

وهنا يعن لنا التوقف المؤقت أمام الترجمات التي نقلت لنا ما أنجزه علماء (علم لغة النص) لأن معظمها لم يراع خصوصية اللغة العربية فيما يتصل بعملية الإحالة عموما، والإحالة بالضمير على وجه الخصوص، فعندما يعرضون للإحالة الداخلية والخارجية، يربطون الخارجية بضمير المتكلم (أنا ونحن) في المنفصل، والياء في (كتابي) في المتصل، كما يربطونها بضمير المخاطب المتصل والمنفصل، ويحصرون الداخلية في (ضمير الغائب)، وكل هذا في حاجة إلى بعض المراجعة لما هو محفوظ في اللغة العربية، ذلك أن ضمير المتكلم يكاد يكون الضمير الأثير في الخطاب الشعري، أما ضمير المخاطب فهو الأثير في الخطاب الحواري وبخاصة الخطاب المسرحي، وضمير الغائب هو السائد في الخطاب السردي، فكيف نقول إن ضمير المتكلم والمخاطب يحيلان إلى خارج النص، فعندما يقول المتنبي:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي * وأسمعت كلماتي من به صممُ

يحيل ضمير المتكلم إلى شخصية خارجية غير شخصية المتنبي؟

هل يدرك الناقلون لعلم لغة النص أن النحو العربي يجعل مرجع هذين الضميرين (المتكلم) و(المخاطب) أي الذات المتكلمة أو المخاطبة، وهذه الذات داخل النص بالضرورة؟ وهل يمكن القول إن ضمير الخطاب في المسرح يحيل إلى شخصية خارج النص المسرحي؟ ما موقف هؤلاء الناقلين من حضور ضمير المتكلم: (أنا) في (السير الذاتية)، وما موقفهم من (الراوي) عندما يحتل موقعا داخليا يتحول فيه إلى واحد من الشخوص الفاعلة والمنفعلة مستخدما (ضمير الأنا)، هل الإحالة هنا تكون خارجية؟، ثم كيف تتوافق مقولة الإحالة الخارجية مع الضمائر في بنية (الالتفات) هل عندما أتكلم عن شخص ما لأقول عنه:

(هذا هو الكاتب المتفرد في كتابته، أحبك أيها الكاتب العظيم) أكون قد استحضرت هذا الكاتب من خلال ضمير الغائب (هو)، ثم استحضرته مرة أخرى من خلال ضمير المخاطب في (أحبك)؟ فهل يعني هذا أني كسرت التماسك النصي عندما جعلت هذا الكاتب مرة داخل النص ومرة أخرى خارجه؟

يصح هذا إن كان للإحالة عند علماء لغة النص ومترجميهم مدلول لا وجود له في الثقافة العربية عموما.

والإشكالية الأخرى في هذا السياق هي القول بالإحالة القبلية والبعدية على وجه الإطلاق، ذلك أن الضمير في اللغة العربية يغلب عليه أن يكون المرجع سابقا عليه سواء أكان هذا السابق ملفوظا أم مفهوما، ولا يجوز عود الضمير على المتأخر إلا في حالات محددة، مثل (ضمير الفصل) كما في قولنا: (خالد هو القائد العظيم) فالضمير هنا يعود إلى ما بعده (القائد العظيم)، وإن كان له سابقة تتضمنه وهي مفردة (خالد)، ومثل (ضمير الشأن) الذي يسميه البعض (ضمير القصة) وهو – غالبا – ما يتردد في البنية السردية ومرجع هذا الضمير يكون مفهوما من السياق غالبا، ويأتي المرجع الملفوظ متأخرا عن الضمير، لكن السياق يربطه بالمتقدم المفهوم، كأن يمر الشخص على حديقة ثم يقول: (هو الزهر يملأ أرجاءها) فقد عاد الضمير (هو) على ما بعده (الزهر)، وهناك بعض حالات لعود الضمير على المتأخر، لكنها ضعيفة الصلة بعملية الإحالة، مثل (ضمير نعم وبئس) أقول: (نعمه رجلا) فالضمير يعود على الرجل المتأخر، ومثل الضمير مع (رُبّ) في مثل: (ربّه رجلا).

لقد فصلت القول في مرجع الضمير لكي أوضح أن مقولة عود الضمير على متأخر إطلاقا مقولة لا تتوافق مع النحو العربي إلا إذا كان هذا المتأخر في اللفظ متقدما في الرتبة كما لو قلت: (امتلأت نفسه بالألم محمد) فقد عاد

الضمير على (محمد) المتأخر لفظا، لكن رتبة (محمد) هي الفاعلية دلاليًّا، والابتدائية نحويًّا، وهي متقدمة.

نخلص من هذا كله إلى أن مقولة (الإحالة القبلية والبعدية) للضمير لا تؤخذ على إطلاقها من كلام (دي بوجراند وسواه)، فهو يتكلم عما هو المحفوظ في لغته، وعلينا أن نراعي المحفوظ في لغتنا.

(6)

واضح من متابعة (الإحالة) مع الضمير أنها عنصر أساسي في التماسك النصي، لكن غالبية الإحالة معه تكون إحالة قبلية؛ إذ هناك أبنية أخرى تؤدي الوظيفة نفسها لكن الإحالة فيها مغايرة بعض التغاير عن الإحالة بالضمير، بل ربما تكون مغايرة لمفهوم الإحالة القادمة من (علم لغة النص)، وأقصد بذلك (أسماء الإشارة والأسماء الموصولة) ويطلق عليهما النحاة: (المبهمات) لأن مدلولهما غير محدد كما هو السائد في الأسماء عموما، وربما لهذا دخلت الأسماء مباشرة دائرة الإحالة، ذلك أن الاسم يحيل إلى مسماه بالضرورة، فعندما أذكر كلمة (شمس) لا أقصد منها مجرد ترديدها صوتيا أو كتابيا، وإنما أقصد إحالة المتلقي إلى هذه الشمس في السماء، أو أن أثير في ذهنه صورتها التي يعرفها، أما اسم الإشارة والموصول فليس لهما مسمى يحيلان عليه، ومن ثم أطلق عليهما (المبهمات) برغم أنهما من (المعارف).

أما دورهما في الإحالة، فهو دور مغاير لكل ما سبق من إحالات وافدة أو عربية؛ لأن الإحالة فيهما مزدوجة أو ثلاثية، وسوف نتابع هذه الخصوصية أولا في (اسم الإشارة) وفي هذه المتابعة أقدم تحفظا لا بد منه أولا؛ ذلك أن ناقلي (علم لغة النص) إلى الثقافة العربية عندما تحدثوا عن الإحالة مع اسم الإشارة، قسموه عدة تقسيمات، يهمني منها تقسيمه إلى إشارة ظرفية زمانية وظرفية مكانية مثل (هنا وهناك وهنالك)، ثم ذكروا في الظرفية الزمانية: (الآن وغدا وأمس)،

والذي تحفظه الذاكرة اللغوية في العربية أن هذه ظروف لا أسماء إشارة، وهو ما يحتاج إلى تصويب.

وازدواج الإحالة في اسم الإشارة يتأتي من السياق الذي يضم أطراف عملية الاتصال: المتكلم والمتلقي والرسالة اللغوية، ومن طبيعة استعمال هذا الاسم أن يكون المتكلم على علم كامل بالمشار إليه من حيث الإفراد أو التثنية أو الجمع، ومن حيث التذكير أو التأنيث، ومن حيث عقله أو عدم عقله، ومن حيث قربه أو توسطه أو بعده؛ لأن كل حالة من هذه الحالات لها صيغتها المناسبة، أي أن المشار إليه سابق على اسم الإشارة ضرورة، وهذه إحالة قبلية وبعدية بالضرورة، فاسم الإشارة يأتي لتعيين السابق في ذهن المتكلم، ثم تقديم المشار إليه للمتلقي، وهو ما يتحقق بعد الإشارة، فعندما أشير إلى القريب أقول: (هذا عالم) وعندما أشير إلى المتوسط في البعد أقول: (ذاك عالم)، وعندما أشير إلى البعيد أقول: (ذلك عالم) فاسم الإشارة بنية حسية أشارت إلى محسوس سابق في الذهن وحاضر في الذكر، ويمكن أن تكون الإشارة إلى غير المحسوس، كأن أقول: (هذا رأي سديد)، لكل هذا كانت الإشارة مزدوجة الإحالة، أي أن التماسك الذي يصنعه اسم الإشارة أعمق من التماسك الذي يصنعه الضمير.

وهذه الإحالة الثنائية في الإشارة، تتحول إلى ثلاثية في (اسم الموصول)؛ لأن سياقه قريب من سياق اسم الإشارة في ضرورة أن يكون المتلقي على علم سابق به على وجه الإجمال، لكن الذي يفسر الاسم الموصول هو جملة الصلة التي تأتي بعده، ثم إن جملة الصلة لا بد أن تتضمن عائدا يعود على هذا الموصول، أي أن الإحالة هنا إحالة ثلاثية: الأولى في أن يكون المتلقي على علم بهذا الموصول، والثانية أن يأتي بعد الموصول جملة تحدده، والثالثة أن تتضمن جملة الصلة عائدا يعود على الموصول، فأقول: (جاء الذي أحترمه)، لا أقول هذه الجملة إلا لمن عنده علم سابق بأن هناك شخصا أحترمه، ثم يتحدد

هذا الشخص بالجملة (أحترمه)، ثم إن الجملة بها ضمير (الهاء) يعود على الموصول.

وهنا يحتاج الأمر إلى بعض احتراس فيما يخص الإحالة القبلية؛ إذ ربما لا يكون المتلقي على علم بالمقصود بالموصول، وهو ما يحوّل الإحالة القبلية إلى إحالة (مضمرة)، ويكون الهدف المضمر: إعلام المتلقي بما يجهله عنه، وهذا الجهل سابق على اسم الموصول بالضرورة.

وهذه الإحالة المركبة يمكن استخلاصها من قول عبد القاهر الجرجاني: "إنك لا تصل (الذي) إلا بجملة من الكلام قد سبق للسامع علم بها، وأمر قد عرفه له... وإن كان المخاطب لا يعلمها فإنه لا بد أن يكون قد علمها على الجملة، وحُدّث بها، فإنك على كل حال لا تقول: (هذا الذي قدم رسولا) لمن لا يعلم أن رسولا قدم، ولم يبلغه ذلك في جملة ولا تفصيل"[17]

الهوامش:

1 – انظر: بلاغة الخطاب وعلم النص – د/ صلاح فضل – عالم المعرفة 1992: 247.

2 – انظر: النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي – فان دايك – ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق 2000.

3 – انظر: نحو النص – د/ أحمد عفيفي – زهراء الشرق 2001: 17

4– البيان والتبيين – الجاحظ – تحقيق عبد السلام هارون – الهيئة العامة لقصور الثقافة 2003: 1/ 76.

5– دلائل الإعجاز – عبد القاهر الجرجاني – قراءة شاكر – الخانجي 1984: 93.

6– السابق: 416.

7– البديع في نقد الشعر – أسامة بن منقذ – تحقيق د/ أحمد بدوي ود/ حامد عبد المجيد – البابي الحلبي 1960: 163.

8– المثل السائر – ابن الأثير – تحقيق د/ أحمد الحوفي ود/ بدوي طبانة – نهضة مصر: 1/ 409، 410.

9– النكت في إعجاز القرآن – تحقيق محمد خلف الله ود/ محمد زغلول سلام – دار المعارف 1969: 39.

10– الطراز – يحيى العلوي – المقتطف بمصر 1914: 2/ 107.

11– انظر دلائل الإعجاز: 49.

12– الشعر والشعراء – ابن قتيبة – عالم الكتب: 6، 7.

13– العمدة – ابن رشيق –تحقيق د/ عبد الحميد هنداوي – المكتبة العصرية 2001: 2/ 137.

14 – النص والخطاب والإجراء – روبرت دي بوجراند – ترجمة د/ تمام حسان – عالم الكتب 1998: 499.

15 – انظر: الخصائص – ابن جني – تحقيق محمد على النجار – عالم الكتب 1982: 2/ 191 – 193.

16 – البرهان في وجوه البيان – الزركشي – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – دار المعارف: 4/ 24 – 26.

17 – دلائل الإعجاز: 200، 201.

المصادر والمراجع

– البديع في نقد الشعر – أسامة بن منقذ – تحقيق د/ أحمد بدوي ود/ حامد عبد المجيد – البابي الحلبي 1960.

– البرهان في وجوه البيان – الزركشي – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – دار المعارف.

– بلاغة الخطاب وعلم النص – د/ صلاح فضل – عالم المعرفة 1992.

– البيان والتبيين – الجاحظ – تحقيق عبد السلام هارون – الهيئة العامة لقصور الثقافة 2003.

– الخصائص – ابن جني – تحقيق محمد على النجار – عالم الكتب 1982.

– دلائل الإعجاز – عبد القاهر الجرجاني – قراءة شاكر – الخانجي 1984.

– الشعر والشعراء – ابن قتيبة – عالم الكتب.

– الطراز – يحيى العلوي – المقتطف بمصر 1914.

– العمدة – ابن رشيق –تحقيق د/ عبد الحميد هنداوي – المكتبة العصرية 2001.

– المثل السائر – ابن الأثير – تحقيق د/ أحمد الحوفي، ود/ بدوي طبانة – نهضة مصر.

– نحو النص – د/ أحمد عفيفي – زهراء الشرق 2001.

– النص والخطاب والإجراء – روبرت دي بوجراند – ترجمة د/ تمام حسان – عالم الكتب 1998.

– النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي – فان دايك – ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق 2000.

– النكت في إعجاز القرآن – تحقيق محمد خلف الله ود/ محمد زغلول سلام – دار المعارف 1969.